مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثاني يوم الأحد 2 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاءً لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

نشرع في لقائنا هذا بالكلام عن مهمة من المهمات التربوية التي يرشدنا إليها كتاب الله العزيز، مذكرين أنفسنا بحديث غاية في الأهمية، فيه خبر عن رسولنا الكريم -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فلما سُئلت عائشة عن خُلُق رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قالت: "كانَ خُلُقُهُ القُرآن."[1] وهنا وجب التنبيه على أمر مهم في معنى هذا الحديث، وهذا الأمر متصل بموضوعنا، وهو "المهمات التربوية."

ما معنى أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان خُلُقه القرآن؟

الخُلُق هو الطبع، وهو يقابل الخَلْق، وهو خِلْقة الجسد. فالإنسان له جسد يطلق عليه خَلْق، وله طبع وروح يطلق

---

[1] () أخرجه أحمد (25302).

عليها خُلُق، فالخُلُق للروح والنفس، والخَلْق للبدن. فعائشة -رضي الله عنها- تقول لنا: إن طبع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتعاملاته مع الأمور، وفهمه للحياة، وفهمه للعلاقات، وتعظيمه لربه، وصفاته النفسية، طباعه التي كان يعامل بها الخَلق ويتعامل بها مع ربه، ومع جبريل، ومع أعدائه، ومع المؤمنين، ومع المنافقين، إنما كانت القرآن. بمعنى أن الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- جعل ما في القرآن من معانٍ ومفاهيم هي نوره الذي يهتدي به وينظر به إلى الكون ويتعامل به مع الأشياء بهذه الصورة. وإذا قلنا إن نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان طبعه ودينه وتعامله القرآن، فانظر إلى خلاف ذلك لكي تتصور هذا الوصف للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأن كل إنسان لا بد أن يكون هناك منهج يسير عليه ويتطبع به، ومن خلاله ينظر للكون متأثرًا بهذا الذي تعلمه، أو هذا الذي تلقّنه.

نضرب مثالًا خلاف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وخلاف حاله من الكمال، حين تنظر للمجرمين اليوم على مستوى العالم، الذين قتلوا أعدادًا بالملايين، ستجد أنهم أشخاص كان

خُلُقهم أحد الفلسفات التي تسمح لهم بقتل الملايين. بمعنى أنه كما كان خُلُق النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- القرآن، فكانت الرحمة في معاملة الخَلق، وكان التعظيم في حق الرب، والعناية بحقه -سبحانه وتعالى-، والتقوى في حقوق الخَلق. كما كان النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- القرآن له أثر في تصوره للحياة، والتعامل مع الخَلق، كذلك انظر لخلاف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- تجد أن كثيرًا من المجرمين قد لوحظ وسجل عليهم أنهم متأثرون بكتب أو بأفكار أو فلسفات جعلت من هذا القتل أمرًا يسيرًا عليهم؛ لذلك لما فشا عند أهل الكفر فكرة "أن الأخلاق الحسنة إنما هي أخلاق الضعفاء، وأن البقاء إنما هو للأقوى، وأن القوة هي أخلاق الأقوياء!" كانت النتيجة أن تظهر هذه الحروب التي لم يعرف الناس قبل هذا لها مثيل، وتخرج هذه الأسلحة التي لم تشهد البشرية مثلها، لأن خُلُقهم كان مأخوذًا من هذه الفلسفات. فإذا فهمنا هذا الأمر سنفهم موضوع المهمات التربوية. موضوعه: أن هناك أمور غاية في الأهمية، وكل القرآن مهم، لكن هناك أمور غاية في الأهمية لتعديل الأفكار، لتصحيح المفاهيم، لكي يحسن تفكير الإنسان، فالقرآن يجب أن يختلط بنا اختلاطًا

يكون بهذا الاختلاط القرآن بصائر، القرآن نور، يكون القرآن بهذا الاختلاط بنفوسنا روح، وكل الأوصاف التي جات في القرآن، بالمهمات التربوية نحاول أن نصل إلى ذوق هذه الأوصاف، كيف أن القرآن بصائر، كيف أن القرآن نور، فكنا في أول المهمات التربوية لأنفسنا ولمن تحت أيدينا أن نسعى دائمًا إلى الوصول إلى شعور، وأن نستحضر دائمًا شعور أن: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ).

الكتاب الذي نزل من عند الله لا ريب فيه، ولا شك أنه من عند الله، وأنه مصلح لحياة الإنسان ولتفكيره، ولا شك أنه صالح لكل زمان ومكان، ولا شك أنه نزل على رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- ليكون منهجًا للحياة، ولا شك أنه يغنينا عن كل الكتب والفلسفات وعن كل الأطروحات لإصلاح النفس ولإصلاح الحياة، لا شك أن التمسك بهذا الكتاب يوصل إلى النجاة.

وبهذا الكلام كله نعود للقضية الأساسية في نقاشنا وهي: أننا نرجو بهذا أن نصل إلى العافية في ديننا، والعافية هذه مهمة الإنسان تجاه نفسه؛ أن يطلب من الله العافية، أن يسعى

لتحصيل العافية، أن يحفظ نفسه من المهالك ويبقى في عافية، أن يربي نفسه تربية تورثه العافية في دينه ومن ثم دنياه.

بعد هذه المقدمة التي أكدنا فيها أن **القرآن منه نستقي المهمات التربوية،** مذكرين أنفسنا بحديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- "كانَ خُلُقُهُ القُرآن."، مؤكدين أن هذه المهمات التربوية مقصدها: أن نصل إلى العافية.

نبدأ اليوم بجملة قرآنية من المهمات التربوية، سبب عظيم من أسباب العافية في ديننا، ومن ثمَّ العافية في دنيانا. هذه الجملة القرآنية جاءت في سورة البقرة في الجزء الثاني من السورة، **وهي قوله، تعالى:**

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

هذه الجملة القرآنية الربانية العظيمة، ما أعظم أهميتها في التربية! وسنرى في المناقشة، أن هذه الجملة سبب عظيم من أسباب العافية في ديننا ومن ثمَّ العافية في دنيانا. هذه الجملة

في الآية رقم (156) في سورة البقرة، وهنا نحتاج أن نقسم المناقشة إلى قسمين:

القسم الأول: نناقش فيه السياق كاملًا.

القسم الثاني: هو التأكيد على أن هذه الجملة مهمة تربوية وكيف يجب علينا نشرها والإرشاد إليها وتربية أنفسنا والجيل عليها.

أما السياق فواضح من قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

وأول ما نقف عليه، نقف على الواو، (وَلَنَبْلُوَنَّكُم)، هذه الواو عطفت هذه الجملة القرآنية على شيء مما سبق في الآيات، (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) وقد ذكر المفسرون "إنها معطوفة على قوله تعالى: (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي

عَلَيْكُمْ)" وذكروا "إنها معطوفة على (اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ). "

لو اخترنا أن قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم) معطوف على (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ) الآية (150)، وهي الآية التي فيها الخبر عن تحويل القبلة، هذه القصة المشهورة والاختبار العظيم الذي حصل للمؤمنين، ثم أنعم الله عليهم، وكانت القبلة إلى مكة، وهي نعمة عظيمة. أخبرهم رب العالمين أنها نعمة، وبيّن أنها من تمام النعمة (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) وذكّرهم بنعمة أخرى أيضًا وهي: إرسال الرسول (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) نعمة عظيمة سبقت نعمة تحويل القبلة، فكما أرسلنا لكم الرسول نعمة، فكذلك حوّلنا لكم القبلة وهي من النعم. فكان المترتب عليها أن يذكروا الله (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ).

هنا سواء عطفت على (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ) أو (اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) فالسياق واضح: أن الله يذكرهم بنعمه، وبعد أن ذكّرهم بنعمه -عزَّ وجلَّ-، قال:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ). بعد ما أخبر أنه أنعم، أخبر أنه يبتلي.

ومن هنا تأتي المهمة التربوية: يجب على المسلمين أن يعلموا أن منزلة الكرامة عند الله، ومنزلة النعم وإتمامها، لا يحول بينهم وبين أن تلحق بهم مصائب دنيوية، وأن هذه المصائب إنما تأتي لاختبار الإيمان، إذا حصل منهم ما يريد الله من الصبر، ومن هذا القول الذي سنتفق على بيانه وعلى خطورته، فيقولون: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، تكون هذه المصائب وردّهم عليها، مُظْهِرة لثباتهم على الإيمان ولمحبتهم للرحمن، ولتسليمهم لقضائه، فيحصل بذلك بهجة في نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله، ويزدادون بهذا رفعة، وزكاء لأنفسهم. ويزدادون يقينًا ويظهر أن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا. ويكون وراء هذا من الأجور ما الله به عليم؛ ولذلك قال: (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ) ليعلم أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة لا تمنع وقوع المصائب في الدنيا.

وقدم بين يدي هذا بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)، فالاستعانة بالصبر والصلاة لعلاج الأمرين: تمام النعمة والهدى، وأيضًا الابتلاء.

يعني بالصبر والصلاة يشكر الإنسان النعم، وبالصبر والصلاة يصبر الإنسان على البلاء. فهنا نؤكد على أن هذه الابتلاءات التي يبتلي الله بها الخلق ليست لإذهاب إيمانهم، وإنما لاختبار إيمانهم. فالله يبتلي العباد بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنّته. والحقيقة أي إنسان عاقل يرى أن سنّة الابتلاء من حكمة الله؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة؛ لحصل الاختلاط بين المؤمنين والمنافقين، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، فالله لا يبتلي لأجل إزالة الإيمان، ولا من أجل رد المؤمنين عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، إنما لأجل إظهار صدق الصادقين وتمييزهم عن غيرهم. ونلحظ هذا الأمر بقوله تعالى: (بِشَيْءٍ) يعني سيبتليهم بشيء يسير، وليس بأمر يذهب أمنهم

وأمانهم وحياتهم. (بِشَيْءٍ) فيه تهوين، وهنا يظهر لنا الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف الذين سلّطهم الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله عزَّ وجلَّ: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[2]، فأصبح الجوع والخوف لباسًا لأولئك القوم الذين عاقبهم الله. لكن هنا يخبر -عزَّ وجلَّ-، أنه شيء من الخوف والجوع بمعنى أنه شيء يسير منهما.

فمن ذلك أن الله يبتلي الإنسان بشيء من الخوف من الأعداء، والجوع أمر في الأرزاق، ونقص من الأموال، وهذا ممكن أن يأتي بأمور مثل الجوائح والغرق والضياع، أو بتسلط أحد عليه فينزع منه ماله. وأيضًا يمكن أن يكون الابتلاء في الأنفس، ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، في أي صورة من صور الفقد، بالأمراض أو بالحروب. وهذا يمكن أن يكون نفس الإنسان يحصل عليه بلاء، أو يحصل على من يحب، وفي الثمرات مثله أن تقع مصائب في الثمار سواء كان ببرد أو بحرق أو بآفة أو

---

[2] () النحل: 112.

بجراد. هذه الأمور لا بد أن تقع، والله حكيم خبير، والناس حين تقع ينقسمون إلى أقسام تميز الناس بين جازع وصابر.

سنرى الصابرين، لأننا نريد أن نعرف كيف يفكر هذا الصابر، فقال رب العالمين: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)، وهنا البشرى دليل على أن الله راضٍ عن هذا العبد الصابر، ودليل على أن الله معه، ودليل على أن خاتمة هذا الصابر أمر فيه من السرور والبشر ما الله به عليم. كيف يفكر هؤلاء الصابرين؟ (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ). نلحظ هنا أن صبرهم إنما هو مبنيٌ ومقترن ببصيرة في أمر الله تعالى. عند المصيبة يعلمون أنهم ملك لله -تعالى- يتصرف بهم كيف يشاء، فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إلى الله، فيثيبهم على ذلك. فقولهم هذا يطابق اعتقادهم، وإذا ما كان يطابق اعتقادهم فلا قيمة له، فيصبح المتكلم كمن ينعق بما لا يسمع، لكن رب العالمين علّمنا هذه الكلمات لتكون شعارًا لنا في كل الحياة، ونلاحظ أن رب العالمين يرشدنا أن نقول بلساننا (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا) نتيجة اعتقادهم قالوا هذا القول. لماذا نقول

بلساننا؟ نقول بلساننا لأن الاعتقاد يقوى بالتصريح، بالكلام عنه، استحضار النفس للمعاني التي تجول في الفؤاد قد يكون ضعيفًا، وقد يكون في حال المصاب مشتت يحتاج إلى تقوية، يحتاج أن تقوله بلسانك فتسمعه آذانك، يحتاج إلى إعلان لهذا الاعتقاد.

نلاحظ أن هذه الكلمة (إِنَّا لِلَّهِ) ابتدأت بـ (إِنَّا) للتوكيد؛ لأن المقام مقام اهتمام، أي: نؤكد هذا المعنى، نحن متأكدون؛ لأن المصاب حين ينزل على الإنسان يكاد ينسيه أنه ملك لله وعبد له، ويحول هولها بينه وبين رشده، فيأتي بهذه الكلمة (إِنَّا لِلَّهِ) مؤكدًا (وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) نلاحظ التوكيد، ونلاحظ الكلام باللسان تعبيرًا عما في الوجدان. كل هذا يبين كم هذه الكلمة غاية في الأهمية، وسنعود إليها للبيان. لكن ننظر كم هي مهمة، أن الإنسان يتصور هذه الحقيقة فيتصرف ويتكلم بناء عليها. ونلحظ أن رب العالمين يجعلنا مقبلين على هذه الكلمة بأن يجعل لها أجرًا، ويجعل لها ثوابًا عظيم (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ)، (أُولَٰئِكَ) اسم الإشارة يدل على ارتفاع

منزلتهم، وهذا بيان لجزاء صبرهم، عليهم تزكيات وصلوات ومغفرات منه، سبحانه وتعالى.

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

هذا كله يعيننا على أن نتصور الحياة على حقيقتها، فإن حقيقة حياتنا أنها ملك لله، وأننا سنعود إلى الله بعد هذه الحياة، فيثيبنا على صبرنا وعلى حسن تعاملنا بالحياة كما أراد الله، بل إن الإنسان وهو في الحياة سيجد أثر صحة هذا التفكير، سيجد أثر أنه يعتقد أنه لله وأن الله يصرّفه، وهذا واضح من خلال النظر في الآيات. كما سمعنا (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) يصلّي عليهم رب العالمين، يُثني عليهم في الملأ الأعلى وعليهم رحمة عظيمة، من رحمته أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر.

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) الذين عرفوا الحق وعملوا به، ما هو الحق المهم في هذا الموقف، بل وفي كل موقف؟ العلم بأننا لله عبيد يدبرنا ويصرفنا وأننا إليه راجعون، والعمل

بهذا يجعل الإنسان يصبر؛ لذلك يأتي بعد هذه الآية، بعد (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) يأتي الخبر: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ). التأمل في هذه الآية -وهذا الأمر أشار إليه بعض المفسرين-: " أن من جزاء الشعور بـ(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، اعتقاده وتصوره وقوله، من جزاء هذا، ما حصل لهاجر وإسماعيل عليه السلام." يعني (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ) إلى أن نسمع: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) إلى أن نسمع: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ) فكأنه يقال: إن الصفا والمروة من آثار هاجر وإسماعيل، عليهم السلام، وقد جرى عليهما من البلوى شأن عظيم، فقد حصل لهم الخوف، وحصل لهم الجوع، وحصل لهم النقص من الأموال، وخافوا من نقص الأنفس وحصل لهم من نقص الثمرات في ساعات، لكن هاجر -رضي الله عنها وأرضاها- عرفت أنها لله، يتصرف فيها كما شاء، وتأكدت من ذلك فسألت إبراهيم -عليه السلام-: "آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟" فلما أجابها أن الله أمره، قالت: "إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا" ، إنا عبيد لله يتصرف فينا كما شاء.

بهذا نفهم أن من اعتقد أنه لله وأن الله يدبره كيفما شاء، أوصله الله إلى أرفع الدرجات وأعلى المقامات في الدنيا وفي الآخرة، وكان مثال هذا ما حصل من آثار هاجر وإسماعيل -عليه السلام-، من الصفا والمروة وكيف أنها أصبحت من شعائر الله؛ لذلك يقول رب العالمين: (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) يعني أولئك الذين قالوا: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) اهتدوا لما هو حق، اهتدوا أن أمرهم بيد الله. فكلما أزعجهم الشيطان بالتفكير في مصابهم قالوا: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) في قلبهم وعلى لسانهم، ومنعوا الشيطان من أن يجعل وسواسه حاجبًا لهم عن التحقق بمقام الصبر، متأكدين أن الحياة لا تخلو من الأكدار.

في مقابل هذا الذين ضعف إيمانهم ونقص يقينهم ما عرفوا أنهم ملك لله وأنهم لله عائدون، يجعلون المصائب سببًا في اعتراضهم على الله، بل يمكن -والعياذ بالله، نسأل الله أن يثبتنا!- أن تخرج منهم كلمة الكفر، ويمكن أن يظهر منهم الشك في صحة ما هم عليه من الإسلام، يقولون: "لو كان هذا هو الدين المرضي لله، ما لحقنا عذاب أو مصائب!"

وهذا شأن أهل الضلال الذين حذرنا منهم رب العالمين. يقول الله -عزَّ وجلَّ- في المنافقين: (إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ)[3].

العبد المؤمن يعلم أنه لله، وأنه إليه راجع، وأن جزاء الأعمال يظهر في الآخرة، وأن مصائب الدنيا إنما هي إظهار للإنسان نفسه عن حاله، يعني أنت تعرف نفسك حين ينزل عليك مصاب، والإنسان يطلب من رب العالمين أن يعافيه في دينه؛ ولذلك هذه القاعدة عظيمة، مهمة من أهم المهمات في تربية أنفسنا وتربية من ورائنا؛ أن نعلم جميعًا أننا لله، وأننا إليه راجعون، وأن ما يحدث علينا من أحوال الدنيا، فإنما حدوثه بقدر من الله. وأن هذا الأمر يريد الله به حكم عظيمة، المحن والرزايا لها فوائد عظيمة، وللإمام (عز الدين بن عبد السلام) كلام على فوائد المحن والرزايا نشير سريعًا إلى شيء منه، والوقت الباقي نؤكد على هذه المهمة التربوية التي بها العافية الإيمانية.

يقول رحمه الله:

---

[3]() النساء: 78.

" لِلْمَصَائِبِ وَالْبَلَايَا وَالْمِحَنِ وَالرَّزَايَا فَوَائِدُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ رُتَبِ النَّاسِ: أَحَدُهَا: مَعْرِفَةُ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَهْرِهَا. "

وهذا شأن مهم مناسب لقولنا: (إِنَّا لِلَّهِ) ، الله هو ربنا وله العزّة، أنت تخطط وتمهد وتفعل وترتب، ثم يأتيك من الله قدر ليس على بالك أبدًا، فتعرف عزّ الربوبية وقهرها.

"الثانية: مَعْرِفَةُ ذِلَّةِ الْعُبُودِيَّةِ وَكَسْرِهَا، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ). اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَأَنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَى حُكْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ لَا مَفَرَّ لَهُمْ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ. "

هذه من فوائد المحن والرزايا، نتعرف أكثر على عزّ ربوبية رب العالمين، وأنه هو الذي يدبر الأمر، ونتعرف أكثر على حالنا، ذلّة العبودية.

يقول: "وَالثَّالِثَةُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى، إِذْ لَا مَرْجِعَ فِي رَفْعِ الشَّدَائِدِ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا مُعْتَمَدَ فِي كَشْفِهَا إِلَّا عَلَيْهِ، واستشهد بقوله تعالى في سورة الأنعام: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا

كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)، وأيضًا في سورة العنكبوت: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)."

إذًا من فوائد المصائب: أنه في لحظتها يحصل الإخلاص لله، من أعظم لحظات الإخلاص لحظة المصيبة.

"الرَّابِعَةُ: الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، واستشهد بقوله تعالى، في سورة الزمر: (إِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ)."

"الْخَامِسَةُ: التَّضَرُّعُ وَالدُّعَاءُ، وهذا مثل الآية التي مرت في الزمر، ومثل آية يونس (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا)."

إذًا الشعور بعز الربوبية وقهر وذلة العبودية، والإخلاص لله والإنابة إليه والتضرع والدعاء، كلها من فوائد الابتلاءات.

"السادسة: الصَّبْرُ عَلَيْهَا، وَهُوَ مُوجِبٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ). وأيضا قوله تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)، وفي الحديث: «وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً هو خيرٌ وأوسَعُ مِنَ الصَّبرِ». "

أيضًا يذكر من فوائدها، وهنا درجة مختلفة من الناس، قال: "السابعة: الْفَرَحُ بِهَا لِأَجْلِ فَوَائِدِهَا، وَإِنَّمَا فَرِحُوا بِهَا إِذْ لَا وَقْعَ لِشِدَّتِهَا وَمَرَارَتِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى ثَمَرَتِهَا وَفَائِدَتِهَا" يعني هم لا يتمنونها، لكن حين تقع يفرحون لأنهم يقارنون بينها وبين الفائدة منها، يقول: "كَمَا يَفْرَحُ مَنْ عَظُمَتْ أَدْوَاؤُهُ بِشُرْبِ الْأَدْوِيَةِ الْحَاسِمَةِ لَهَا، مَعَ تَجَرُّعِهِ لِمَرَارَتِهَا" حين يكون الإنسان عنده أمراض صعبة ومؤلمة ثم يقال له: "الدواء مر"، يقول: "لا بأس مر الدواء ولا آلام الداء." بهذه الصورة يفرحون بها.

أيضًا يقول: "الثامنة: الشُّكْرُ عَلَيْهَا لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ فَوَائِدِهَا. كَمَا يَشْكُرُ الْمَرِيضُ الطَّبِيبَ الْقَاطِعَ لِأَطْرَافِهِ، الْمَانِعَ مِنْ شَهَوَاتِهِ، لِمَا يَتَوَقَّعُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْبُرْءِ وَالشِّفَاءِ."

من مصالح هذه المصائب: أن العبد إذا زاد إيمانه حصل منه الشكر عليها لأنها تتضمن فوائد.

ومن مصالحها أيضًا: "التاسعة: تَمْحِيصُهَا لِلذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، كما في الحديث: «ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ

وَلَا وصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِن خَطَايَاهُ». "

"العاشرة: رَحْمَةُ أَهْلِ الْبَلَاءِ وَمُسَاعَدَتُهُمْ عَلَى بَلْوَاهُمْ، فَالنَّاسُ مُعَافًى وَمُبْتَلًى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى الْعَافِيَةِ."

"الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ قَدْرِ نِعْمَةِ الْعَافِيَةِ وَالشُّكْرُ عَلَيْهَا. فَإِنَّ النِّعَمَ لَا تُعْرَفُ أَقْدَارُهَا إِلَّا بَعْدَ فَقْدِهَا."

"الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْفَوَائِدِ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا."

ومن فوائد المصائب:

"الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَا فِي طَيِّهَا مِنَ الْفَوَائِدِ الْخَفِيَّةِ (فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)، ومثله قوله تعالى: (وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) ومثله قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ). "

"الرابعةَ عَشْرَةَ: إِنَّ الْمَصَائِبَ وَالشَّدَائِدَ تَمْنَعُ مِنَ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ، فَإِنَّ نَمْرُودَ، لَوْ كَانَ فَقِيرًا سَقِيمًا، فَاقِدَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، لَمَا حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، لَكِنْ حَمَلَهُ بَطَرُ الْمُلْكِ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ عَلَّلَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مُحَاجَّتَهُ بِإِتْيَانِهِ الْمُلْكَ."

وذكر أيضا من الفوائد:

"الخامسةَ عَشْرَةَ: الرِّضَا الْمُوجِبُ لِرِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْمَصَائِبَ تَنْزِلُ بِالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، فَمَنْ سَخِطَهَا فَلَهُ السُّخْطُ وَخُسْرَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ رَضِيَهَا فَلَهُ الرِّضَا. (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)."

هذا شيء مما ذكره في فوائد المصائب -رحمه الله- والمتبقي من الوقت نعود فيه لبيان والتأكيد على هذه المهمة التربوية التي يجب أن نربي أنفسنا عليها، وهي: أن نعتقد وننطق ونتصور، مؤكدين لأنفسنا هذا الأمر: (إِنَّا لِلَّهِ)، بمعنى أننا مملوكون لله، مدبَّرون تحت أمره وتصريفه، ليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، وانظر إلى بدنك، وانظر إلى تصريف الله لهذا البدن، فلا أنت مسؤول عن الدم يجري، ولا أنت

مسؤول عن النفس يخرج ويدخل، ولا أنت مسؤول عن المعدة تهضم، ولا أنت مسؤول حتى في حال نومك عن روحك التي تخرج وتدخل ولا عن بدنك الذي يقلّب على فراشه، فنحن مملوكون لله، مملوكون له -سبحانه وتعالى-، مدبَّرون تحت أمره وتصريفه. فإذا ابتلانا بشيء منه نعتقد أنه قد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأمواله، ولا اعتراض عليه. نحن نعلم أنه أرحم الراحمين ونحن عبيد له، فنحن لله وله راجعون، بل نعتقد بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي هو أرحم بنا من أنفسنا، نعتقد أن وقوعها فيه الخير الكثير. ونسأل الله أن يزيدنا يقينًا، وأن يبصرنا بهذا الخير، فهذا يوجب لنا الرضا عن الله، ويوجب لنا الشكر على تدبيره؛ لأنه ما دبر للعبد إلا خيرًا، وإن لم يشعر بذلك.

وعلى ذلك يستطيع الإنسان أن يعود بذاكرته إلى ما مضى من حياته، لقصص انتهت في حياته، ابتدأت، تألم منها، وانتهت ووجد خيرها. فليَعُد كل مرة إليها، وليشكر الله عليها، وليستغفر إن كان صدر من فؤاده شيء لا يليق، وهذا

الاستغفار ضروري. وليجعل هذا الذي مضى عليه، ذاكرة قوية في فؤاده، يذكّر نفسه دائمًا به، ويقول لنفسه: "في القصة الماضية المنتهية، كم رأيت من الخير الذي أعطاك رب العالمين؟" فأول النجاح والفلاح أن يتصور الإنسان حقيقة وجوده في الحياة، حقيقة منزلته في الحياة؛ أنه مملوك لله، مدبَّر تحت أمره وتصريفه، ثم يعتقد أنه إليه راجع يوم المعاد، فيجازيه -سبحانه وتعالى-، على كل عمل صدر منه، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورًا عنده، وإن كان خلاف ذلك فتصرفنا على أننا أسياد وعلى أننا لا نقبل أقدار الله، ونحاربها، وجزعنا وسخطنا، لن يكون حظنا إلا السخط، والعياذ بالله، نعوذ بالله من هذه الحال، وفوات الأجر.

فتصور هذه القاعدة العظيمة، قاعدة مهمة من مهمات التربية: أن يعلم العبد أنه لله الملك المحيط بكل شيء، فيسلّم نفسه لربه، ويسأل ربه دائمًا السلامة، ويسأل العافية دائمًا. نحن لك يا رب عبيد تُصرّفنا كيفما شئت، نسألك العافية في كل شأننا، ونحن إليك راجعون، جميع أمورنا راجعة إليك، وراجعون إليك يوم القيامة تحاسبنا، سلّمنا أمرنا لك. هذه

المهمة من المهمات التربوية سبب لعافية إيمانية، وشاهد على اليقين، فنسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من المسلّمين لرب العالمين، لتنزل علينا صلوات رب العالمين، وتنزل علينا رحماته، ونكون من المهتدين. نسأل الله بمنّه وكرمه أن يعيننا على أنفسنا، وأن يصلح أحوالنا، وأن تكون هذه الكلمة في فؤادنا وعلى لساننا، معتقدين أنها أبلغ علاج، وأنفع للإنسان في عاجله وآجله. نعتقد أننا وأهلنا ومالنا ملكٌ لله حقيقة، وأن ما معنا عارية، وأن مصيرنا ومرجعنا إلى الله مولانا الحق. ولا بد لنا أن نخلّف الدنيا وراءنا، وأن نجيء لربنا أفرادًا كما خلَقنا أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات. هذه بداية العبد وهذه نهايته، فلا فرح بموجود ولا أسى على مفقود. نفكر في مبدأنا ومعادنا، وهذا أعظم علاج، والحمد لله رب العالمين.